استراحة المسافر (٢)

* قال بعضهم: رأيت رجلاً محموماً ومصدّعاً يأكل التمر ويجمع النوى فقلت: ويحك أنت بهذه الحال وتأكل كُلّ هذا التمر؟ فقال: يا مولاي عندي شاةٌ ترضع وما لها نوى فأنا آكل هذ التمر مع كراهيتي له لأطعمها النوى. فقلت له: أطعمها التمر والنوى. قال: أوَيجوز ذلك! قلت: نعم. قال: والله لقد فرّجتَ عني. لا إله إلاّ الله ما أحسن العلم.
* قيل لمغفَّل: قد سُرق حمارك فقال: الحمد لله الذي ما كنتُ عليه.
* سمع أعرابي أبا المكنون النحوي في حلقته وهو يقول في دعاء الاستسقاء: اللهم ربنا وإلهنا ومولانا صلّ على محمد نبينا؛ اللهم ومن أراد بنا سوءاً فأحِط ذلك السوءَ به كإحاطة القلائد على تَرَائب الوَلاَئد، ثم أَرْسِخْه على هَامَته كرُسُوخ السِّجِّيل، على هَام أصحاب الفيل، اللهم اسقنا غَيْثاً مغيثاً مَريئاً مريعاً مجلجلاً مسحنفراً هزجاً سحًّا سفُوحاً طَبَقاً غَدَقاً مُثْعَنجِراً. فقال الأعرابي: يا خليفة نوح هذا الطوفان ورب الكعبة، دعني آوِي إلى جبل يعصمني من الماء.

السجيل: حجارة كالمدر، وقيل هو حجر من طين. المجلجل من السحاب: الذي فيه صوت الرعد. المسحنفر: الكثير الصب الواسع. الهزج: صوت الرعد. طبق: عامٌّ واسع. الغدق: المطر الكثير. المثعنجر: السيل الكثير.

* كان غلامٌ يُقَعِّر في كلامه، فأتى أباالأسود الدؤلي يلتمس ما عنده؛ فقال له أبوالأسود: ما فعل أبوك؟ قال: أخذته الحمَّى فَطَبَخَتْه طَبْخاً

وفَضَخَتْه فَضْخاً وفَنَخَتْه فَنْخاً فتركته فَرْخاً. قال أبوالأسود: فما فعلت امرأته التي كانت تُجارُّه وتُشَارُّه وتُزارُّه وتُهارُّه. قال: طلقها فتزوجت غيره فرَضِيت وحَظِيَت وبَظِيت، قال أبوالأسود: قد عرفنا حظيت، فما بظِيَت؟ قال: حرف من الغريب لم يبلغك. قال أبوالأسود: يابن أخي، كلّ حرف من الغريب لم يبلغ عمَّك فاستُره كما تستر السِّنَّوْرُ خُرْأَها.

فنخته: أوهنته وأضعفته. الفرخ: الضعيف المنهوك. تُجارّه: تطاوله. وتُشاره: تخاصمه. وتُزارّه: تعضّه. وتُهارُّه: تَهِرّ في وجهه كما يهر الكلب.

الحمار المسروق:

كان للأستاذ عثمان لبيب حمار يركبه في ذهابه إلى المدارس بالقاهرة فسرقه اللصوص وبلغ الخبر محمود سلامة صاحب جريدة الواعظ فرثى الحمار المسروق، وواسى صاحبه بقوله:

قف بسوق الحمير وانظر مليّا ... هل ترى أدهماً أغرَّ المحيّا
خلسته يد اللصوص صباحاً ... موكفاً مُلجماً معدّاً مهيّا
فخلا اصْطَبله وأصبح قاعاً ... صفصفاً خاوي العروش خليّا
كان يا حسرتا عليه صبوراً ... قانع النفس راضياً مرضياً
كم ليالٍ على الطوى قد طواها ... حامداً شاكراً ولم يشك شياً
لا لِفقرٍ وضيق عيشٍ ولكنْ ... كان في الزهد راغباً وتقيا
ليت شعري أين الأمان وهذا ... جحش عثمان قد عُدِمناه حيّا
كان عوناً له إذا رام ظعناً ... وخليلاً لدى المقام صفيّا

كان إن قلت (هشْ) أجابك طوعاً وإذا قلت (حا) انتضى سمهريّاً
لـك فيـه العـزاء عثمـان أمـا سـالبـوه فسـوف يلقـون غيّـا

الخيبة الكبرى :

حَضَر فريق كلية اللغة العربية لكرة القدم لمباراة فرقة المعهد، وكان أن تسبب أفراد فريق المعهد الديني ـ في مصر ـ في هزيمة منكرة لهم، وذلك بسبب تهاونهم وغرورهم، فنظم الشاعر هاشم الرفاعي ـ رحمه الله ـ هذه القصيدة تخليداً لهذه الهزيمة وسخرية من أفراد فريق المعهد المنهزم. . وذلك في عام ١٩٥٣م.

يـا خيبـةً قَـدّروهـا بـالقنـاطيـر جاءت لنا في نهارٍ كالدياجير
إني ذهبتُ إلى النادي فطالعني مقطّـب الـوجـهِ مُغبـرُّ الأسـاريـر
يبكي ويندبُ من خابوا بملعبه وفي المباراة صاروا «كالطراطير»
من كلِّ «شحطٍ» أطال الله قامتَهُ يكادُ يَصلُحُ في جرِّ «الحناطير»
ما كانَ مُنتَظراً هذا المُصاب لكمْ يا فرقةً كوّنوها من «خناشير»
مـا للغبـيِّ «ولِلْفُتْبُـول» يلعبُهـا يا ليتهم عَلَّقوكم في الطنابير
أخزاكم الله قد جئتم لمعهدنا بالعار يا فتيةً مثلَ «المواجيرِ»
في «الماتش» لم تَلْعبوا الكنْ رأيتكمو في البرتقال نزلتم كالمناشيرِ
لو كنتُ أعلمُ أن الخيبةَ انقسمت من حظِّكم في سِجلاَّتِ المقادير
لكنـتُ جئـتُ «بطبـالٍ» يـزفكـمُ ورحتُ أتلو على لحن المزاميرِ
«لا بأس بالقوم من طولٍ ومن غلظٍ جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ»

من وصايا المسافرين

إليك بعض الوصايا الخلَّابة، والكلمات الجذابة، والدعوات المستجابة التي كان يوصىٰ بها بعض المسافرين، وإن أجمل وصية وأعذب كلمة وأروع عبارة وأصدق موعظة هي ما نطقت به شفتا أعظم إنسان عرفته الدنيا فاستمع إلى هذه الدرر من سيد البشر:

جاء رجلٌ إلى الرسول ﷺ فقال: يارسول الله إني أريد سفراً فزودني فقال له: «**زوَّدك الله التقوى**» قال: زدني قال: «**وغفر ذنبك**» قال: زدني. قال: «**ويسَّر لك الخير حيثما كنت**» [صحيح الجامع].

كان هذا الرجل يريد زاد الدنيا فذكَّره ﷺ بزاد الآخرة فلما ذاق السائل حلاوة الزاد ونزل على قلبه كالماء البارد على الظمأ طلب الزيادة وطمع في البركة. فما أعظم الموصِي وما أسعد الموصَىٰ.

وجاء رجل إليه ﷺ فقال: يارسول الله إني أريد أن أسافر فأوصني. قال: «**عليك بتقوىٰ الله، والتكبير على كل شرف**» فلما ولّىٰ الرجل قال ﷺ: «**اللهم اطو له البُعد وهوّن عليه السفر**» والشرف: المكان العالي المرتفع. [صحيح الجامع].

وقال ﷺ: «**عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوىٰ بالليل**» [الصحيحة: ٦٨١]. الدلجة: السفر في الليل.

وكان ﷺ إذا ودَّع الجيوش قال: «**أستودع الله دينكم وأماناتكم وخواتيم أعمالكم**» [الصحيحة: ١٤].

أراد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ السفر للعمرة فجاء يودِّع

الرسول ﷺ فقال له: «**لا تنسنا من دعائك يا أخي**» قال عمر: كلمة ما أريد أن لي بها الدنيا وما فيها. يقصد قوله ﷺ: «**لا تنسنا من دعائك يا أخي**».

وقال مطرِّف بن عبدالله بن الشخير لابنه: الحسنة بين السيئتين وخير الأمور أوساطها وشر السير الحقحقة. والحقحقة: السير بسرعة فائقة.

جاء رجلٌ إلى هشام أخي ذي الرمة الشاعر فقال له: إني أريد السفر فأوصني قال: صلِّ الصلاة لوقتها فإنك مصلِّيها لامحالة فصلِّها وهي تنفعك، وإياك وأن تكون كلب رفقتك، فإن لكل رفقة كلباً ينبح دونهم، فإن كان خيراً شركوه فيه، وإن كان عاراً تقلَّده دونهم.

وقصده من قوله: «ينبح دونهم» أي أن بعض الناس من بين تلك الرفقة تجده دائماً هو الذي يكثر الكلام والاعتراض والانتقاد والخلاف.

ومن أجمل ما رأيته من وصايا المسافرين وأبلغه وأجمعه وأحسنه وأتمه ما روي من أن لقمان قال لابنه: يا بني إذا سافرت وإذا بعدت عليك المنازل فعليك بالدلجة فإن الأرض تطوىٰ بالليل، وإذا أردت النزول فلا تنزل على قارعة الطريق فإنها مأوى الحيات والسباع، ولكن عليك من بقاع الأرض بأحسنها لوناً وألينها تربة، وأكثرها كلأ فانزلها، وإذا نزلت فصلِّ ركعتين قبل أن تجلس وقل: «**رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين**» وإذا أردت قضاء حاجة فأبعد المذهب في الأرض، وعليك بالسترة، وإذا ارتحلت من منزل فصلِّ ركعتين، وودِّع الأرض التي ارتحلت عنها وسلِّم عليها وعلى أهلها؛ فإن لكل بقعة من الأرض أهلاً من الملائكة، وإذا مررت ببقعة من الأرض أو وادٍ أو جبلٍ فأكثر من ذكر الله، فإن الجبال والبقاع ينادي بعضها بعضاً: هل مرَّ بكن اليوم ذاكر لله؟ وإن

استطعت أن ألاَّ تطعم طعاماً حتى تتصدق منه فافعل. وعليك بذكر الله جلَّ وعزَّ مادمت راكباً، وبالتسبيح مادمت صائماً، وبالدعاء مادمت خالياً. وإياك والسير في أولَّ الليل وعليك بالتعريس ـ النزول ليلاً ـ والدلجة من نصف الليل إلى آخره، وإياك ورفع الصوت في سيرك إلاَّ بذكر الله، وسافر بسيفك وقوسك، وجميع سلاحك وخُفِّك وعمامتك وإبرتك وخيوطك، وتزوَّد معك الأدوية تنتفع بها وتنفع من صحبك من المرضى والزَّمْنىٰ، وكن لأصحابك موافقاً في كل شيء يقربك إلى الله ويباعدك من معصيته، وأكثر التبسم في وجوههم وكن كريماً على زادك بينهم، وإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوك فأعنهم، وإذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم، واجتهد رأيك، وإذا رأيتهم يمشون فامش معهم، أو يعملون فاعمل معهم، وإن تصدَّقوا أو أعطوا فأعط. واسمع لمن هو أكبر منك، وإن تحيَّرتم في طريق فانزلوا، وإن شككتم في القصد فتثبتوا وتأمَّروا، وإذا رأيتم خيالاً واحداً فلا تسألوه عن طريقكم فإن الشخص الواحد في الفلاة هو الذي حيَّركم، واحذروا الشخصين أيضاً إلاَّ أن تروا ما لا أرىٰ فإن الشاهد يرىٰ ما لا يرىٰ الغائب، وإن العاقل إذا أبصر شيئاً بعينيه عرف الحق بقلبه.

من أخبار المسافرين (٤)

الفضيل ينصح الرشيد

هارون الرشيد: هذا الخليفة العادل، والإمام الصالح الذي أُفتريَ عليه افتراءات كثيرة وهو منها براء. هارون الرشيد الخليفة العابد العادل الذي كان يحج سنة ويغزو سنة، إليك هذه القصة الجميلة المؤثرة والموعظة البالغة التي تهز الوجدان وتنفذ إلى أعماق القلوب والتي وُعِظَ بها هارون الرشيد من العالم العابد الواعظ الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ.

يقول الفضل بن الربيع ـ حاجب الرشيد ـ سافر أمير المؤمنين للحج فأتاني فخرجت إليه مسرعاً. فقلت له: هاهنا الفضيل بن عياض هل لك في زيارته؟ فقال الرشيد: امض بنا إليه، فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها، قال: اقرع الباب، فقرعته، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: مالي ولأمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله! أوما عليك طاعته؟ فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة وأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كفُّ هارون قبلي إليه. فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله! فقلت في نفسي: ليكلمنَّه الليلة بكلام نقي من قلب تقي. فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله. فقال: إن عمر بن عبدالعزيز لما وُلي الخلافة دعا سالم بن عبدالله، ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حَيْوَةَ فقال لهم: إني قد ابتُليتُ بهذا البلاء، فأشيروا عليَّ، فعد الخلافة بلاءً، وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم بن عبدالله: إن أردتَّ النجاة من عذاب الله عز وجل فصم

عن الدنيا وليكن إفطارك منها الموت.

وقال له محمد بن كعب القرظي: إن أردت النجاة من عذاب الله غداً ليكن كبيرُ المسلمين عندك أباً، وأوسطهم أخاً، وأصغرهم ولداً، فوقّر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحبُّ لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت.

وإني أقول لك إني أخاف عليك أشد الخوف من يوم تزلّ فيه الأقدام، فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا؟

فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غشي عليه؛ فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين. فقال: تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا! ثم أفاق. فقال له: زدني رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني أن عاملاً لِعُمر بن العزيز شُكِيَ إليه، فكتب إليه عمر: ياأخي، أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن يُنْصَرف بك من عند الله ـ عز وجل ـ فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء.

فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعتَ قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل. فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال: زدني رحمك الله، فقال: ياأمير المؤمنين، إن العباس عمَّ المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله أمّرني على إمارة، فقال له: «**إن الإمارة حسرةٌ وندامة يومَ القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل**».

فبكى هارون بكاءً شديداً، فقال له: زدني رحمك الله.

فقا له: يا حسن الوجه! أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غشٌّ لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ قال: «**من أصبح لهم غاشّاً لم يَرِحْ ريح الجنة**». فبكى هارون وقال له: عليك دين؟ قال: نعم، دينٌ لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم أُلهم حُجّتي.

قال: إنما أعني من دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

فقال له: هذه ألف دينار، خذها فأنفقها على عيالك وتقوّ بها على عبادتك. فقال: سبحان الله! أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا! سلّمك الله ووفقك. ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب قال هارون: إذا دللتني على رجل فدُلّني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين.

الغربة والحنين إلى الأوطان

جـوى أودىٰ بقلبـك أم وجيـبُ غَداةَ حدا بك الحادي الطروبُ
بَعُدتَ عن الديار وصرت تدعو على البعـد الـديـار ولا مجيـبُ
وأصبـو للحمـىٰ بجميـع قلبـي كـذا فليصـبُ للـوطـن الغـريـبُ

مفارقة الإنسان لوطنه الذي ترعرع فيه ودرج عليه أمرٌ ليس باليسير بل هو من أشق الأمور على النفس، إن مفارقة ملاعب الطفولة ومراتع الصبا أمرٌ عظيم، وخطبٌ جليل، ومصابٌ رهيب. يقول أبوتمام:

البيـن جـرّعنـي نقيـع الحنظـل البيـن أثكلنـي وإن لـم أثكـلِ
ما حسرتي أن كدتُ أقضي إنما حسـرات نفسـي أنني لـم أفعـلِ
نَقِّلْ فؤادك حيث شئت من الهوىٰ مـا الحـبُّ إلاَّ للحبيـب الأولِ
كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتىٰ وحنينـــهُ أبـــداً لأول منـــزلِ

أُخرج المصطفى ﷺ من مكة وقد ناله فيها أشدّ العذاب، وأقسى العنت، وأمرّ الإيذاء، ومع ذلك قال وهو يودعها: «**والله إنك لأحب البقاع إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت**» [انظر: صحيح الجامع: ٧٠٨٩].

فبـالله يـا ريـح الحجـاز تنفسـي على كبد حرّى تذوب من الوَجْدِ

* * *

يا نسيم الحجاز لولاك تطفي نار قلبي أذاب جسمي اللهيب

* * *

ريـح الحجـاز بحـقّ مـن أنشـاكِ رُدّي السـلام وحـيِّ مـن حيَّـاكِ
هبِّي عسى وجدي يخفُّ وتنطفي نيـران أشـواقـي ببـرد هـواكِ

يـا ريـح لـولا أن فيـك بقيـةً من طيب مكة متُّ قبل لقاكِ

لذلك يبقى الإنسان يحنُّ إلى أيامه الأولى ومنازله القديمة فقد ينزل بلاداً غير بلاده، ويجاور أناساً غير جيرانه وذوي قرابته، وقد يأنس بذلك، ويألفه ويسعد به لكن حنينه إلى منزله الأول لا ينقطع وشوقه لدياره الأولى لا ينتهي. يقول البهاء زهير:

سقىٰ الله أرضاً لستُ أنسى عهودها ويا طول شوقي نحوها وحنيني
بلادٌ إذا شارفتُ منها نجومَها بدا النُّور في قلبي وفوق جبيني
منـازل كـانـت لـي بهـنَّ منـازلٌ وكان الصِّبا إلفي بها وقريني
تذكرت عهداً بالمحصب من منى ومـا دونـه مـن أبطـح وحجـون
وأيـامنـا بيـن المقـام وزمـزم وإخـواننـا مـن وافـدٍ وقطيـنِ

الإنسان يرتبط ببيئته ارتباطاً وثيقاً وقد التفت الباحثون في الأجناس البشرية إلى أثر البيئة وصلة الإنسان بها فقالوا: إن صلة الإنسان ببيئته وأرضه أكثر ارتباطاً وتعقيداً من صلة الحيوانات والنباتات بالبيئة والأرض. والحنين إلى الوطن ظاهرة إنسانية عامة لا يستطيع المرء التخلي عنها، وليس الحنين أمراً معيباً بل هو أمر محمود ومحبوب عند الأمم ودلالة على العقل والرشد. قالت العجم: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسها تواقة. وقال حكماء الهنود والفرس: من أمارات العاقل: برّه بإخوانه وحنينه إلى أوطانه.

قال ابن خلّكان:

أيُّ ليلٍ على المحبِّ أطاله سائق الظَّعْن يوم زمّ جماله
يا ديار الأحباب لازالت الأد مع في ترب ساحتَيْك مذاله

وتمشّى النسيمُ وهو عليلٌ في مغانيك ساحباً أذياله
أين عيشٌ مضى لنا فيك ما أسْـ ـرع عنا ذهابه وزواله
حيث وجه الشباب طلقٌ نضيرٌ والتصابي غصونه مياله
ولنا فيك طيبُ أوقات أنسٍ ليتنا في المنام نلقى مثاله

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وُعِكَ أبوبكر وبلال، فكان أبوبكر إذا أخذته الحمَّى يقول:

كلُّ امرىءٍ مُصَبَّحٌ في أهلِهِ والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أَقلعت عنه الحمَّى يرفع عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ
وهل أردِنْ يوماً مياه مجنَّةٍ وهل يبدُوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ

وقال: اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء. ثم قال ﷺ: **«اللهم حبِّب إلينا المدينة كحُبِّنا مكة أو أشدَّ، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدِّنا وصحِّحْها لنا، وانقل حُمَّاها إلى الجحفة...»** [رواه البخاري]

شامة وطفيل: جبلان على نحو ثلاثين ميلاً من مكة.

الغريب ليله طويل، وقلبه عليل، وهمّه ثقيل، إذا أوى إلى فراشه فكأنما يتقلب على شوك القتاد، وإذا أراد النوم جفت عيناه الرقاد، وإذا هدأت العيون فهو سمير السهاد، ساهر لا ينام، متيّمٌ مستهام، لا يلذُّ له شراب، ولا يُستساغ له طعام.

يا نسيم الجنوب بالله بلِّغ ما يقول المتيّم المستهامُ
قل لأحبابه فداكم فؤادٌ ليس يسلو ومقلةٌ لا تنامُ

بنتمُ فالرقاد عندي سهادٌ مُذْ نأيتم والعيش عندي لمامُ
يا ديار السرور لازال يبكي بك في مضحك الرِّياض غمامُ
ربَّ عيشٍ صحبته فيك غضٌّ وجفون الخطوب عني نيامُ
في ليالٍ كأنهن أمانٍ من زمانٍ كأنه أحلام
كلُّ أنسٍ ولذّة وسرورٍ بعدما بنتُمُ عليَّ حرامُ

وهذا مسافر آخر يبلغ به الحنين مبلغاً عظيماً، ويشتد شوقه وحنينه حتى إنه لو مرَّ بالحصى لفلقها أو بالرياح لأسكتها فكيف بقلبه المسكين هل يطيق هذا الحنين؟

أحنُّ إلى الرمل اليماني صبابةً وهذا لعمري لو رضيتُ كئيبُ
ولو أن ما بي بالحصى فَلَّق الحصىٰ وبالريح لم يُسمع لهن هبوبُ

وهذا أبوتمام يشتكي ويبكي غربته بنيسابور ويحن إلى البلاد التي أحبها وتعلق قلبه بها وهي بلاد الشام:

صريع هوىً تغاديه الهموم بنيسابور ليس له حميمُ
غريبٌ ليس يؤنسه قريبٌ ولا يأوي لغربته رحيمُ
فقد فارقت بالغربيّ داراً بأرض الشام حفّ بها النعيمُ
هي الوطن الذي فارقتُ فيه وفارقني المساعد والنديمُ

وقال الآخر:

يا سائلي كيف حالي بعد فرقته حاشاك مما بقلبي من تنائيكا
قدأقسم الدمعُ لايجفوالجفون أسىً والنوم لا زارها حتى ألاقيكا

وقد تألَّم العلماء، وتأوَّه الشعراء، وتحسَّر الأدباء، على مفارقتهم لأوطانهم، وبكوا غربتهم، وأفعمت مقالاتهم، وقصائدهم وآدابهم

بالحنين إلى الأوطان، والبكاء على مفارقة الأهل والجيران، والأحبَّة والخلاَّن، فيالله كم من قصيدة في الحنين رائعة، وكم من أبيات في ألم الغربة ذائعة.

هل يعلم الصَّحْبُ أني بعد فرقتهم ... أبيتُ أرعىٰ نجوم الليل سهرانا
أقضي الزمان ولا أقضي به وطراً ... وأقطع الدهر أشواقاً وأشجانا
ولا قريب إذ أصبحت في حزنٍ ... إن الغريب حزينٌ حيثما كانا

يقول أبوتمام مشتكياً ألم الغربة، ومتبرماً بلوعة الأسفار:

ما اليوم أوّل توديع ولا الثاني ... البَيْنُ أكثر من شوقي وأحزاني
دع الفراق فإن الدهر ساعده ... فصار أملك من روحي بجثماني
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا ... بالرقتين وبالفسطاط جيراني
وما أظن النوىٰ ترضىٰ بما صنعت ... حتى تُطَوِّح بي أقصىٰ خراسانِ
خلَّفتُ بالأفق الغربي لي سكناً ... قد كان عيشي به حلواً بحلوانِ
وليس يعرف كنه الوصلِ صاحبه ... حتى يُغادى بنأيٍ أو بهجرانِ

يروون أن أفلاطون قال: غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها. وقال: يداوى كل عليلٍ بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تتطلع لهوائها، وتنزع إلى غذائها. ومعنى ذلك أن الإنسان إذا أصابته العلة والمرض وهو في ديار غربة ونازح عن وطنه فإن حصوله على شيء من وطنه قد يعافيه من مرضه.

يقول جالينوس: يتروح العليل بنسيم، أرضه كما تنبت الحبة ببلّ القطر. يقال إن اسفنديار وهو قائد من قواد الفرس لما غزا بلاد الخزر اعتلّ بها فقيل له: ما تشتهي؟ قال: شربة من ماء دجلة، وشميماً من تراب إصطخر، فأتي بعد أيام بماء وقبضة من تراب وقيل له: هذان ماء دجلة

ومن تراب أرضك فشرب واشتمَّ بالوهم فبرىء من علته.

وهذا شاعر آخر يشتكي ألم الغربة وكثرة الترحال وأن ظروف الحياة وحوادث الأيام هي التي ألجأته إلى ترك أوطانه ومفارقة عياله:

إلى كم فرقتي وكم ارتحالي ... فلا أشكو لغير الله حالي
تجدِّد لي الحوادث كلَّ يومٍ ... رحيلاً قطُّ لم يخطر ببالي
وما كان التغرب باختياري ... ولا قلبي عن الأوطان سالي
وما عيش الغريب بلا عيالٍ ... كعيش القاطنين ذوي العيالِ

* * *

وهذا أحد الشعراء يحن إلى بلده نَجْد حنيناً عظيماً ويتألم من الفراق ويتساءل متى يستريح قلبه:

أكَرِّرُ طرفي نحو نجدٍ وإنني ... إليه وإن لم يُدْرِكِ الطرفُ أنظرُ
حنيناً إلى أرضٍ كأن ترابَها ... إذا أمطرتْ عودٌ ومسكٌ وعنبرُ
بلادٌ كأنَّ الأقحوانَ بروضها ... ونورَ الأقاحي وشيُ بردٍ محبَّرُ
أحنُّ إلى أرض الحجازِ وحاجتي ... خيامٌ بنجدٍ دونها الطرفُ يقصرُ
وما نظري من نحو نجدٍ بنافعٍ ... أجل ـ لا ـ ولكني إلى ذاك أنظرُ
أفي كلِّ يومٍ نظرةٌ ثم عبرةٌ ... لعينيك مجرى مائها يتحدَّرُ
متى يستريحُ القلبُ إمَّا مجاورٌ ... بحربٍ وإما نازحٌ يتذكرُ

وقال آخر، ولله درّهُ فما أحسن ما قال:

ومشتت العزمات لا يأوي إلى ... سكنٍ ولا أهل ولا جيران
ألِفَ النوى حتى كأن رحيله ... للبين رحلته إلى الأوطان

إن هنالك أناساً قد ابتلوا بكثرة الأسفار، وعذاب الترحال، فطال

اغترابهم، وكثر انتحابهم، وتعذب أحبابهم، لا تأنس بهم دار، ولا يقرُّ لهم قرار.

لا يستقرُّ بأرضٍ أو يسير إلى أخرى لشخصٍ قريبٍ عزمُهُ نائي
يوماً بِحزْوَى ويوماً بالعقيق ويوْ ماً بالعُذيبِ ويوماً بالخُلَيْصاءِ
وتارةً ينتحي نجداً وآونةً شعْبَ الحزُونِ وحيناً قَصْرَ تيماءِ

من أشد أنواع الفرقة وأعظمها حرقة، مفارقة الأهل والأولاد، فإنها تفتت الأكباد، وتبعث على السّهر والسُّهاد. ولذلك نجد أن بعض الآباء يرفض السفر ويصبر على ضيق العيش وشظفه كي يبقى بجوار أبنائه وبنياته. يقول حطان بن المعلى في قصيدة رائعة تمثل صدق الأبوة الحانية:

لولا بُنَيَّاتٌ كزغب القطا رُدِدْنَ من بعض إلى بعض
لكان لي مضطربٌ واسعٌ في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشي على الأرضِ
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض

عزيزٌ على الإنسان أن يعيش في غيبة طويلة وهو يعلم أن خلفه أبناء صغاراً يتمنون رؤيته ويبكون غيبته، ويحتاجون إلى رعايته. فهم يتألمون كلما رأوا غيرهم من أترابهم وقد سعدوا بآبائهم، وأنسوا بقربهم منهم يعطفون عليهم، ويروحون عنهم، ويقضون حوائجهم بينا هم يتلفتون يمنة ويسرة فلا يجدون آباءهم، ولا يتحقق مناهم وكأنهم أيتام. والأب المسكين كذلك لا يفتأ يذكرهم ولا يرقأ عليهم دمعه، ولا يأنس لفراقهم قلبه ولكن ظروف الحياة، وأحداث الدنيا، حكمت عليه بالغياب عن

أنظارهم وربما كان ذلك الغياب يشقى به ليسعدهم، ويتجرع مرارته ليكرمهم، فهو يكدح لتأمين لقمة العيش لهم، ويسعى لجلب الرزق لأجلهم. يقول أحد الآباء باكياً على فراق ابنه الصغير.

ولي واحدٌ مثل فرخ القطا صغير تخلّف قلبي لديهِ
نأت عنه داري فيا وحشتا لذاك الصبي وذاك الوجيهِ
تشوّقني وتشوّقتهُ فيبكي عليَّ وأبكي عليهِ
لقد تعب الشوق ما بيننا فمنه إليَّ ومني إليهِ

وقال آخر ويا لروعة ما قال:

أفي كل يومٍ غربةٌ ونزوحُ أما للنوى من أوبة: فتروحُ
وأرَّقني بالرَّيِّ نوح حمامةٍ فَنحتُ وذو الشجو القديم ينوحُ
على أنها ناحت ولم تذر دمعة ونحتُ وأسراب الدموع سفوحُ
ونامت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراخي مهامهُ فِيحُ

وقال عنترة:

أحرقتني نارُ الجوى والبعادِ بعد فقد الأوطان والأولادِ
شاب رأسي فصار أبيض لوناً بعد ما كان حالكاً بالسواد

ويقال إن من أحسن ما قيل في الغربة هذين البيتين وهما لعلي بن الجهم حيث قال:

يا رحمتا للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

الفراق نار تكوي الفؤاد، وتلهب القلوب، الفراق مُبكي العيون، ومقرِّح الجفون، أمرُّ طعماً من الحنظل، وأمضى فتكاً من الخنجر. فإن

الإلف متى فارق أليفه فقد حكم على عينيه بالسهر المؤبد، ومن بان عن حبيبه فقد قضى على قلبه بالهموم الشاقة، سهرٌ وألمٌ، بكاءٌ وندم، ليلٌ بلا رقاد، وجسمٌ بلا فؤاد، أرقٌ وآهات، أنين وعبرات، تململٌ وحسرات، الساعة كاليوم، واليوم كالشهر، والشهر كالسنة.

امسحوا عن ناظري كحل السُّهاد ... وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
أو خذوا منّيَ ما أبقيتمُ ... لا أُحب الجسم مسلوب الفؤاد
فعلى الأيام من بعدكُمُ ... ما على الثاكل من لبس الحداد

قال الجاحظ معقباً على النصوص التي تواترت عن حكماء اليونان وملوكهم وفلاسفتهم في حنينهم إلى أوطانهم وشدة شوقهم إليها قال: «فهؤلاء الملوك الجبابرة الذين لم يفتقدوا في اغترابهم نعمة، ولا غادروا في أسفارهم شهوة، حنوا إلى أوطانهم، ولم يؤثروا على تربهم، ومساقط رؤوسهم شيئاً من الأقاليم المستفادة بالغزو ولا المدن المغتصبة من ملوك الأمم»اهـ.

فهذا أكبر دليل على أن عاطفة الحنين إلى الوطن عاطفة جياشة لا تقف أمامها أية عاطفة أخرى.

وما سرّ قلبي منذ شطت بي النوى ... نعيمٌ ولا لهوٌ ولا متَصَرَّفُ
ولا ذقتُ طعم الماء إلاَّ وجدتُه ... سوى ذلك الماء الذي كنتُ أعرفُ
ولم أشهدِ اللذات إلاَّ تكلفاً ... وأيّ سرورٍ يقتضيه التكلّفُ

مرارة الفراق ولوعته هي التي جعلت الشاعر يبالغ هذه المبالغة العجيبة فيقول:

أحبابنا لو لقيتم في إقامتكم ... من الصبابة ما لاقيتُ في ظعني

لأصبح البحر من أنفاسكم يبساً والبرُّ من أدمعي ينشقُّ بالسُّفنِ!!

وقال آخر:

كلُّ سحابٍ أمطرتْ أرضكم حاملةٌ للماء من أدمعي
وكلّ ريحٍ زعزعت تربكم فإنها الزفرة من أضلعي

وهذا أبوالدر ياقوت الرومي يشكو فراق الأحبة وينثر الدمع لغيابهم ويحاول أن يبرز لنا شدة اللوعة وحرارة الفراق ومرارة البين فيقول في قصيدة رائعة امتلأت بالمبالغات الطريفة:

إن غاض دمعك والأحبابُ قد بانوا فكل ما تدَّعي زورٌ وبهتانُ
وكيف تأنسُ أو تنسى خيالهمُ وقد خلا منهمُ ربعٌ وأوطانُ
لا أوحش الله من قومٍ نأوا فنأى عن النواظر أقمارٌ وأغصان
أجرى دموعي وأذكى النَارَفي كبدي غداة بينهمُ همٌّ وأحزانُ
طوفانُ نوحٍ ثوى في مقلتيّ وفي طيّ الحشا لخليل الله نيران
لو كابد الصخرُ ما كابدْتُ من كمدٍ فيكم لجاد له أُحْدٌ ولُبنان
وذاب يذبلُ من وجدي ورضّ على رَضْوَى ولان لما ألقاه ثَهْلانُ
يا من تملك رقي حسنُ بهجته سلطان حسنك مالي منه إحسانُ
كن كيف شئتَ فما لي عنك من بدلٍ أنت الزلالُ لقلبي وهو ظمآن

* * *

وبالرغم من أن العالم اليوم أصبح كما يقال قرية مفتوحة، فلم يعد المسافر والمغترب يعاني ما كان يعانيه المسافرون في العصور القديمة فقد أصبح بإمكان الإنسان اليوم أن يصل في يوم واحد إلى البلد التي كان يحتاج المسافر إلى عدَّة أشهر كي يصل إليها، وأصبح بإمكان المسافر أن

يناجي أهله ويتمتع بصوت أبنائه ويأنس بأخبار أحبابه في كل لحظة، وفي أي وقت شاء، عبر وسائل الاتصال الحديثة حتى ولو كان بينه وبينهم آلاف الأميال. فما أعظمها من نِعَمٍ ينعم بها إنسان العصر، ولكن قلَّ الشاكرون لها. ومع ذلك كله فيبقى السفر هو السفر، والمعاناة هي المعاناة، والغربة هي الغربة، والحنين إلى الوطن هو الحنين إلى الوطن.

يقول الشاعر اللبناني وديع عقل:

أمسى يعذّبني ويضنيني ... شوقٌ طغى طغيان مجنونِ
أبغي الهدوء ولا هدوء وفي ... صدري عبابٌ غير مأمون
يهتاج إن لجّ الحنين به ... ويئن فيه أنين مطعون
ويظل يضرب في أضالعه ... وكأنها قضبان مسجون
ويح الحنين! وما يجرعني ... من مُرِّه ويبيت يسقيني

وهذا رشيد أيوب من شعراء المهجر يقول:

تذكرت أوطاني على شاطىء النهر ... فجاش لهيبُ الشوق في مطلع السِّرّ
وأرسلت دمعاً قد جنته يد النوى ... عليَّ فأمسى فيَّ منتحب القطرِ
عَدوّان منذ البدء لكن لشقوتي ... قد اتفقا أن أقضي العمر بالقهر
فلا النار في صدري تجفف أدمعي ... ولا عبراتي تطفئ النار في صدري
يروّعني بالهجر دهري كأنه ... عليمٌ بأني لست أخشى سوى الهجر

وإليك مقطوعة لمصطفى الرافعي يقول فيها:

سهرت والليل أمسى للورى سكنا ... فمن يدل على أجفاني الوسنا
أرعى كواكبها حتى إذا أفلتْ ... ألقيت للطير في تحنانها الأذنا

وأسأل الحب عن روحي وعن بدني فلا أرى فيه لي روحاً ولا بدنا
وما نظرتُ لأعضائي وقد بليَتْ إلاَّ حسبت ثيابي فوقها كفنا

* * *

وحينما نفي شوقي إلى الأندلس اشتعلت نيران الحنين إلى مصر بقلبه فنادى بأعلى صوته قائلاً:

ياساكني مصر إنا لانزال على عهد الوفاء وإن غبنا مقيمنا
هلاَّ بعثتم لنا من ماء نهركِمُ شيئاً، نَبُلّ به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنةٌ ما أبعد النيل إلاَّ عن أمانينا

وهذا الشاعر «مؤمنة أديب صالح» يشكو ألم الغربة ومرارة الفراق ويحنّ إلى موطنه الذي اضطر للنأي عنه فتدمع عينه ويهفو قلبه لبلده «الشام» بلد الطبيعة الخلاَّبة، والجمال الساحر، والخير الوافر، فيقول في قصيدته التي بعنوان «ياشام»:

شامٌ لها تهفو القلوبُ وترتجي عوْداً لسحر نسيمها المتمهلِ
تـأوي إليـك قلـوبُنـا لكنمـا تشكو العيون من ابتعاد المنهلِ
يا شام دمعك مالح في وجنتي وجراح عشقك شعلة في مرجلي
أنـىٰ لمثلـي أن يـروم تـأسِّيـاً بعد الشآم فلا نعمتُ بموئِل
بعد الشآم أرى الفؤادَ مشَرداً وأرى الجروحَ تكاثرت في مقتلي
طال النوى والعمرُ يسرع بالفتى والتيهُ يقطع في الفؤادِ كمنجلِ
ستطول ساعاتي بأرضِ تغربي ويمل دمعي تحت جفنٍ مسبلِ
قالوا حرامٌ أن تموتَ مشرداً عـدْ للشـآم وللـزمـان الأولِ
فأقول ماتت في الشآم يمَامتي والقلبُ ينكرُ للرجوعِ توسلي

ما هذه شامُ الطفولة والهوى شامُ الأصالَةِ طيرها يشتاق لي

وهذا شاعر يحن إلى بلدته الجميلة «أبها» ويتألّم لفراقها فيقول:

فؤادٌ بنار البعد محترقٌ يُكْوىٰ ونفسٌ أُسلِّيها ولم تعرف السّلوى
أحن إلى أبها و«أبها» بعيدةٌ على ناظري لكن قلبي لها مأوى
حنيني وقد ودَّعتُ «أبها» لغيرها أشدّ من الثكلى تحيط بها البلوى
إلى الله أشكو لوعة الوجد إنني أناجيه من قلبي وأمحضه الشكوى

وهذه من قصائد الحنين الرائعة للشيخ أحمد آل عبدالقادر من شعراء الأحساء وعلمائها توفي حوالي ١١٩٤هـ. وإنك لتشعر بأنين الشاعر وحنينه من خلال هذه القافية النونية.

ساجعُ الورقِ على الأغصانِ غنَّى أطربَ الخالي واجتاحَ المُعنَّى
صادحاً يمرحُ في أفْنانِه كُلّما زاد غراماً زاد فنَّا
ألهب الشوق بأحشائي وما فارقَ الرَّبْعَ ولا الإلْفَ الأغنَّا
أذكر الصَّبَّ عهوداً بالْحمَى ولُيَيْلاَتٍ بها قلبي تَهَنَّى
وندامَى كأساطين لهمْ سمرٌ يحلو إذا ما الليل جنَّا
لهمُ في العلم أقدامٌ رستْ وعليهم باهرُ الفضلِ أبَنَّا
ليتَ شعري والأمانيُّ رُقىً هل تراهُمْ مقلتِي بالقرب مِنَّا
أو ترى مَنْ قد رآهمْ لحظةً إنَّني أرضَى بما منهمْ تَسَنَّى
كلَّما لاحَ بريق نحوهمْ جذبَ القلبَ هوى الربع فحنَّا
يا أصيْحاباً بهَجْر خيَّمُوا لم أُبِنْ من بعدكم للضِّحْك سِنَّا
إن تغيبُوا عن عيوني فلَكُم في سُوَيْدَا القلب قد شيَّدتُ كِنَّا
أو يحولَ القفرُ من دونِكُمُ فخيالٌ منكمُ يمسِي لَدُنَّا

صار شُغْلي بعدكم همًّا رَسَا ... لـم يُـزَايلْنـي وإن بنتُـم وبنَّـا
أتمنَّـاكُـمْ وهيهـاتَ المُنـى ... عزّ ما أرجُوه من دهري وأنَّى
ما لِقلبي لم يفارقْه الجَوَى ... وعُيـونـي دمعُهـا لـم يتـأنَّـى
وفُـؤادي كلَّمـا هبَّـتْ صبَـا ... فرَّحتْني خِلتُه في الحال جُنَّا
أغـرامـاً وبعـاداً وضنـىً ... يا لقومِي لفتىً لم يطمئنَّا!
خـانـهُ الصبرُ وأعيـاهُ الهـوى ... فـإذا اللّيـلُ دَجَـى حـنَّ وأنَّـا

ويظهر شعر الحنين ناراً مشتعلة، وعاطفة جياشة عند الذين طردوا من ديارهم واغتصبت بلادهم وأراضيهم كما يحدث في كثير من بلدان العالم وأهمها فلسطين المغتصبة، فهاهم أهلها قد ذابت قلوبهم من حرارة الشوق إلى القدس، وحيفا، ويافا، والخليل، وغيرها فها هو ذا محمود الحوت يخاطب يافا ويتساءل عن شقيقاتها:

يافا، لقد جفّ دمعي فانتحبت دماً ... متى أراك؟ وهل في العمر من أمدِ
كيف الشقيقات، وأشواقي لها مُدُناً ... كـأنهـا قطـع مـن جنـة الخلـد
ماحالها اليوم يايافا وهل نعمتْ ... من بعد أن سُلِّمتْ أمساً يداً بيد
وكيف من قد تَبقَّى في مرابعها ... وقد تركناه فيها ترك ملتحد
تعبتُ لكنني مازلت في تعبي ... أشكو إلى الله، لا أشكو إلى أحد